الدلالة والتأثيل
مبادئ ونماذج لغوية[1]

ترجمة: عبد النبي سفير
مختبر العلوم المعرفية (LASCO)
كلية الآداب والعلوم الإنسانية-ظهر المهراز
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس - المغرب

يعد التأثيل أحد أقدم فروع اللسانيات، في حين تعتبر الدلالة أحدث هذه الفروع. بدأت فلسفة اللغة في اليونان، مع التصورات التأثيلية، خاصة مع الجدال الشهير بين الطبيعيين والمواضعاتيين. وقد اعترف النحوي فارون Varron، منذ القرن الأول قبل الميلاد، بأن دراسة اللغة تشتمل أربعة أقسام كبرى: الصرافة، والتركيب، والتأثيل[2]. غير أن الدلالة لم تترسخ كعلم مستقل إلا في الحقبة الرومانية. يسمح لنا مقطع من رواية لويس لامبير Louis Lambert لبلزاك Balzac بالرجوع إلى المناخ الثقافي الذي نشأت فيه الدلالة. يتحدث عن «السلطة الحية» التي تمتلكها الأفعال «من الروح، وتعيدها إليها بواسطة ألغاز الفعل وردة الفعل الجميلة بين الكلام والفكر...فقط من خلال أشكالها (physionomie) تحيي الكلمات في عقولنا المخلوقات التي تشكل لباسا لها» ويضيف بلزاك: «هل يتضمن هذا الموضوع علما مكتملا» (م. ليفي، ص. M. Lévy 4).

غير أن الدراسة التي تنبأ بلزاك بحدود نطاقاتها بصفة عامة، تشكلت في صورة متواضعة وأقل شعرية في محاضرات الفلسفة اللاتينية التي كان يلقيها اللساني الألماني ك. شارل رييزيك C. Chr. Reisig بمدينة هال منذ سنة 1825[3]. لقد خصص مكانة محددة، في هذه المحاضرات، لتخصص جديد «السيماسيولوجية sémasiologie» وعرفها بوصفها دراسة للمبادئ المتحكمة في تطور معاني الكلمات. غير أنه لم يشكل سوى مشروع أولي نشر بعد وفاة رييزيك، هذا المشروع الذي لم تتعرف عليه إلا حلقة ضيقة من المتخصصين. فإذا حق لنا أن ننعت رييزيك بأنه (موسى) الدلالة، فإننا نعتبر ميشال بريال Michel Bréal (عيسى) الدلالة،

---

1 المقال ترجمة لمداخلة M. Stephen ULLMANN م. ستيفن أولمان في المؤتمر العاشر للجمعية الدولية للدراسات الفرنسية (جامعة لييدز) بتاريخ 28 يوليوز 1958، والمنشور بعنوانه الأصلي (SÉMANTIQUE ET ETYMOLOGIE) في مجلة:
Cahiers de l'Association internationale des études francaises, 1959, n°11. pp. 323-335-

2 R. H. Robins, Ancient and Mediaeval Grammatical Theory in Europe, Londres, 1951, p.53. Cf. P Zumthor, «Fr.Etymologie. Essai d'histoire sémantique», dans Etymologica, Walther von Wartburg zum 70. Geburtstag, Tubingue, 1958, pp. 873-93.

3 H. Kronasser, Handbuch der Semasiologie, Heidelberg,1952, pp. 29 ss., et K. Baldinger, Die Semasiologie, Berlin, 1957,pp. 4 ss

= اعتبر كريستيان كارل رييزيك أحد الآباء المؤسسين لعلم الدلالة (السيماسيولوجية sémasiologie)، واقترح سنة 1839 نظرية لسانية مستوحاة من علم الجمال والمنطق المتعالي لكانط.

بما أن هذا الأخير هو الذي عثر على الاسم الذي ستشتهر به، كما أنه أيضا من وضع الأسس المنهجية لهذا العلم الجديد، وعمل على انتشاره على المستوى الدولي. منذ سنة 1883، أربعة عشر سنة قبل صدور عمله «Essai de sémantique»، نشر مقالا بعنوان القوانين الثقافية للغة «les lois intellectuelles du langage»، الذي يعتبر نوعا ما شهادة ميلاد الدلالة. فقد كتب م. برايل «إن الدراسة التي ندعو إليها القارئ هي نوع حديث للغاية بحيث لم تسم بعد، لقد انصبت حكمة معظم اللسانيين، في الواقع، على هيأة الكلمات وشكلها، وما انتبهوا قط إلى القوانين التي تنتظم تغير المعاني، وانتقاء العبارات الجديدة والوقوف على تاريخ ميلادها ووفاتها، وبما أن هذه الدراسة تستحق اسماً خاصاً بها، مثل الأصواتية والصرافة، فإننا نطلق عليها اسم الدلالة «sémantique» (من الفعل σημαίνω)، بمعنى علم المعاني»[1].

يوضح المشروع الذي عرضه بريال أنه كان يتصور الدلالة بوصفها تخصصا تاريخيا صرفا. ظلت الدلالة، طلية النصف الأول منذ قرن على وجودها، وفية للتوجهات التاريخية التي طبعها بها بريال ومعاصروه - بول هيرمان Hermann Paul، آرسين دارميستيتر Arsène Darmesteter وآخرون. استأثرت دراسة تغيرات المعنى، لمدة طويلة، باهتمام الباحثين؛ وصنفت وفقا لمعايير منطقية و نفسية واجتماعية، واتجه البحث نحو تحديد الأسباب الكامنة وراءها والتوجهات التي استلهمت منها والقوانين التي تحكمت فيها. لقد سجلت الدلالة الشهيرة للساني السويدي ج. ستيرن G. Stern، والتي ظهرت سنة 1931، نقطة بارزة من مراحل تاريخ هذا العلم الناشئ. حتى في أيامنا هذه لا زالت هذه الإشكالات التقليدية تستأثر باهتمام الكثير من الدلاليين؛ فإلى عهد قريب انتقد اللساني الروسي ف. أ. زفجينتزيف V. A. Zvegintsev الدلالة المعاصرة لكونها حادت عن مهمتها الرئيسية: دراسة القوانين الملموسة لتطور اللغة[2].غير أن هذا لم يمنع، منذ بداية الثلاثينات من القرن التاسع عشر، حدوث تحولات عميقة في الدلالة، وما لبثت التصورات الجديدة التي ظهرت أن تردد صداها في مجال التأثيل. يبدو لي أن هناك، على العموم، ثلاث نقط، ذات صلة بالتطورات الدلالية الأخيرة، لها نتائج كبيرة على الأبحاث التأثيلية: التمييز بين المنظور السانكروني والمنظور الدياكروني؛ ثم الصيغة التي تتصورها اللسانيات المعاصرة لبنية المفردات؛ وفي الأخير، نظرية تحفيز الكلمات.

1

نعلم أن ف. دي سوسير Ferdinand de Saussure قد أبرز، مبدئيا، وجود وجهتي نظر متمايزتين في اللسانيات: المنظور الوصفي أو السانكروني، والمنظور التاريخي أو الدياكروني. بالنسبة لسوسير فإن هذا «التعارض بين وجهتي النظر مطلق، ولا يعاني من تسويات»؛ «إن محاولة الجمع بين وقائع متباينة في نفس التخصص سيصبح مشروعا خادعا»[3] ووفقا للمقولة الروحية لشارل بالي Charles Bally، فإن اللساني الذي يخلط بين المنهجين يشبه الرسام الذي يسعى إلى إنجاز لوحة شخصية انطلاقا من صور فوتوغرافية التقطت في سنوات مختلفة، وذلك بوضع فم رضيع، ولحية بالغ، وتجاعيد عجوز. خلال السنين الأخيرة، تراخى بعض الشيء هذا التعارض السوسيري، حيث وجد، في الواقع، أن مجموعة من الوقائع المعجمية، مثل الصراع بين المشتركات اللفظية، تتطلب تأليفا حكيما بين المناهج السانكرونية والدياكرونية. في حين تبين أن التعارض

---

1 Annuaire de l'Association pour l'encouragement des études grecques en France, 1883 ; cité par A. W. Read, « An Account of the Word Semantics », Word, iv (1948), pp. 78-97.

2 V. A. Zvegintsev, Semasiologija, Moscou, 1957, p. 46.

3 Cours de linguistique générale, 4e éd., pp. 119 et 122.

كان ناجحا في دراسة مشكل دلالي يمس عن قرب التأثيل والمعجمية: من قبيل معرفة هل نحن، في بعض الحالات، بصدد كلمة واحدة أو كلمتين.

لنأخذ أمثلة ملموسة، هل يوجد في الفرنسية فعلين لـ voler، أحدهما يعني «التحرك في الهواء» والآخر «يسرق»، أم أن الأمر يتعلق باشتراك لفظي، بمعنى كلمة واحدة تحمل دلالات مختلفة؟ تتعلق الإجابة بوجهة النظر التي نتبناها. بالنسبة للدلالة السانكرونية، يتعلق الأمر بكلمتين مختلفتين، لأن الفرق شاسع بين المعنَيَيْن لدرجة أن المستعمل غير اللساني يدرك أن لا علاقة تجمع بينهما. ففي معجم وصفي، تسجل بوصفهما كلمتان متمايزتان، متبنيا الفرنسية المتوسطة التي تتجاهل تأثيل الكلمة. ولنستشهد مرة أخرى بسوسير، فاللساني السانكروني «لا يمكنه الولوج إلى وعي الأشخاص المتكلمين إلا بحذف الماضي»[1].

إن إجابة لساني دياكروني، صاحب معجم تأثيلي على سبيل المثال، ستكون مختلفة تماما. لا يتعلق الأمر، بالنسبة إليه، بكلمتين، ولكن بفعل واحد انشطر تاريخيا إلى اثنين. سيوضح لنا أن (voler) المشتقة من الأصل اللاتيني (volare) لا تدل، إلى حدود أواسط القرن السادس عشر، إلا على «التحرك في الهواء»، وهي الفترة التي أكتسبت فيها، علاوة على ذلك، معنى «سرق» التي برزت في لغة القناصين في تعابير مثل «الصقر طيِّر الحجل»[2]. بهذا لن يتوفر معجم تاريخي أو تأثيلي إلا على مدخل واحد بالفرنسية «voler» والذي سيقوم بإعادة المعنى إلى أصوله. نرى أن الإجراءين معا مشروعين، لكنهما يعودان إلى تنظيم للأفكار مختلف تماما...

فإذا كان التأثيلي يجمع، في الغالب، ما فرقته حوادث التاريخ، فإننا نجد أيضا أن مستعملي اللغة يقيمون علاقات بين كلمتين لا تجمعهما أية صلة من وجهة نظر تاريخية. وذلك من قبيل اسم النبتة «souci» (الأذريون الطبي)[3] التي يقتنع أغلب المتكلمون أنها نفس الكلمة الدالة على «الحزن»، بيد أن هذه الأخيرة تنتمي إلى العائلة اللاتينية «sollicitare»، في حين أن اسم النبتة يعود إلى «solsequia». كما نعثر على علاقة سانكرونية بين «flamme» (النار) و«flamme» (إحدى الأدوات التي يستعملها البيطري) التي تعود إلى الأصل «phlebotomus»، كما هو الشأن أيضا بين «folie» اسم مجرد، و«folie» (منزل ريفي صغير) الذي اشتق من ورقة «feuille». في الحالات الثلاث التي أحلنا إليها، فإن الترابط شبه تأثيلي-أو التجاذب الجناسي «attraction paronymique» كما أشار إلى ذلك ألبير دوزات Albert Dauzat- حدد تغييرات على المادة الصوتية للكلمات.

---

1 Cours de linguistique générale, 4e éd., pp. 11 et 71.

2 Dictionnaire étymologique de la langue française. d'Oscar Bloch et Walther von Wartburg. PUF.

= المقصود من هذا المثال، أن طائر الحجل لا يطير وحينما يقتنصه الصقر يجعله يحلق في الهواء. من ثمة أصبح المعنى مشتركا بين التحليق في الهواء والسرقة. (الشرح إضافة من عندنا)

3 الأذريون الطبي معرب آذرگون الفارسية بمعنى لون النار أو البكورية الطبية نوع نباتي يتبع جنس البكورية من الفصيلة النجمية. يعتبر من أشهر النباتات المستخدمة في الغرب. الجزء المستعمل من الأذريون هو أزهاره البرتقالية اللون جميلة الشكل والموطن الأصلي لهذا النبات هو جنوب أوروبا. ينمو الأذريون في البساتين وأطراف الطرق، ويبلغ ارتفاع الساق 40 - 60 سنتيمترا، وأوراقه بيضاوية مسننة الأطراف ومكسوة بشعيرات دقيقة، والأزهار صفراء أو برتقالية أو أحمر ذهبي في وسطه خمل أسود تتفتح في الخريف. (نقلا عن ويكيبيديا مدخل: بكورية طبية)

يبدو إذن أن هنالك نوعين من التأثيل، أحدهما تاريخي والآخر سانكروني، يدرس الأول أصول الكلمات، والثاني شبكة الترابطات الشكلية والدلالية التي تربط فيما بينها داخل نظام لساني معطى.

قادت هذه الملاحظة م. فوندريس M. Vendryes، في مقال شهير نشر سنة 1953، إلى صياغة مبادئ «تأثيل إحصائي» تتجسد مهمته في «ضبط القيمة الدلالية للكلمات في اللغة وفي فترة زمنية مقيدة بدقة...يتعلق الأمر بتحديد الموقع الذي تحتله كل كلمة في الذهن، وحصر دلالتها واستعمالها، وحساب ترددها، وتقدير قيمتها التذكرية، ووسم العلاقات التي تجمعها بباقي الكلمات. إن نوعا من الجرد للعالم الداخلي الذي يحمله كل شخص بداخله»[1].

يقرر فندريس أيضا أن هذا التصور المزدوج للتأثيل يشبه الثنائية التي كان يستعملها النحو السانسكريتي بين «yoga» بمعناها الأصلي، و«rùdhi» بالمعنى الذي اكتسبته بالاستعمال، هذا التمييز الذي عتم التوجه التاريخي المحض للسانيات الغربية.

ظهر مشكل قديم في يوم جديد مع هذا التوجه التأثيلي الإحصائي، يتعلق الأمر بالتأثيل «الشعبي». يعترف أغلب اللسانيين أن هذه التسمية غير دقيقة: بمعنى هل أن الشعب هو الذي أدخل حرف (d) في (poids) بتقريبها من اللاتينية (pondus)، أو الذي كاد أن يدرج حرف (ç) في (savoir) لتقريبها من اللاتينية (scire)؟ غير أنه ليست فقط أسماء الظواهر هي التي تشكل محط نظر؛ بل إن اللسانيين غير متفقين حول تقييم أهميتها. في الطبعة الأولى من محاضرات سوسير، اعتبر التأثيل الشعبي «ظاهرة مَرَضية»، رغم أن هذا التعبير حذف في الطبعات اللاحقة[2]، من الواضح أن التأثيل الشعبي عند سوسير ولسانيين آخرين هو شيء غير طبيعي «لا يقع إلا في حالات خاصة» (سوسير، ص. 241). تؤكد المدرسة الجيرونية[3] (école gilliéronienne)، بالعكس، أنه سيرورة طبيعية ومتداولة بكثرة أكثر مما نظن. يعد التأثيل الشعبي في الدلالة المعاصرة مجرد شكل خاص من التأثيل الإحصائي، يقيم تقاربات تخالف المعطيات التاريخية، وتحدث تغيرات صوتية وكرافية ودلالية في الكلمة التي تمسها. كما يعبر عن ذلك م. أور M. Orr على نحو جيد «لا تختلف كثيرا عن أختها العالمة، [أي] تأثيل الفيلولوجيين، فهي أكثر حياة و «استعمالا» من هذه الأخيرة، تنشأ بشكل فطري وحدسي ومن الوهلة الأولى، وهو ما ينشأ في الأخرى بشكل قصدي وبدعم كبير من المؤلفات والبطاقات»[4].

2

مظهر آخر من مظاهر الدلالة الحديثة التي يمكن أن تستأثر باهتمام التأثيليين، هو إدخال وجهة النظر البنيوية في دراسة المعجم. نعلم أنه منذ سوسير، فإننا نتصور اللغة بوصفها نظاما من العناصر المترابطة تعرف إحداها في علاقتها بالأخرى، وتستمد قيمتها من المجموعات الأوسع التي تدمج فيها؛ فحسب الصيغة المشهورة لسوسير « اللغة شكل وليست مادة» (محاضرات سوسير، ص. 169). نال هذا التصور البنيوي للغة نجاحا باهرا في مجال الصواتة والصرافة. إلا انه اصطدم، في الدلالة، بصعوبات جمة ناتجة عن كون المعجم يعد بصفة نسقية أقل تنظيما من العناصر الصوتية والنحوية. ومع ذلك، تحققت العديد من

Linguistique de Paris, xlix, i (1953), pp. 1-19 : p. 7. 1 Pour une étymologie statique, Bulletin de la Société de Londres, 1937, p. 173, n. 1. 2 I. Iordan-J. Orr, An Introduction to Romance Linguistics,

3 نسبة إلى اللساني السويسري جيل جيرون Jules Gilliéron (1854-1926) متخصص في الدراسات اللهجية.

4 «L'étymologie populaire», Revue de Linguistique Romane, xviii (1954), pp. 129-42 : p. 142.

التطورات التي أغنت الدلالة ببعض المفاهيم المهمة، مثل «الحقول المفهومية» مع م. تريي M. Trier والمعجمية الاجتماعية مع م. ماطوري M. Matoré. أما بالنسبة للتأثيل فإن قدوم الدلالة البنيوية يعني توسيع الآفاق. يتطلب الآن الرصد التاريخي لأي كلمة الأخذ بالاعتبار المحيط و«الحقل الترابطي»[1]، والنسق المعقد للارتباطات الشكلية والدلالية التي تنتمي إليها والتي يمكنها أن تؤثر على تطورها في أية لحظة. من وجهة نظر منهجية، يمكن أن يكون لهذا التصور الجديد مزايا كثيرة: يمكن أن تحذر من التأثيلات الخاطئة المؤسسة على توثيق غير تام؛ بحيث ستقدم حلولا للمشاكل التي كانت تبدو مستعصية؛ وفي الأخير ستوفر تفسيرات شاملة خلافا للمنهج التقليدي الذي اكتفى بتفسيرات جزئية. يمكن لبعض الأمثلة أن توضح كلا من هذه الاحتمالات.

1. تتمظهر خطورة التأثيل التبسيطي المؤسس على ارتباطانية ساذجة جليا في تاريخ الصفة (fruste)، المقترضة عن الإيطالية إبان عصر النهضة، والتي كانت تدل على «مستعمل»، غير أنها اكتسبت دلالة «خشن» (rude). لاشك أن تأثيلي من المدرسة التقليدية كان سيبدع في ربط جسر بين المعنيين من خلال تفسير المسار الترابطي الذي خرجت بفعله الثانية من الأولى. غير أن ذلك سيشكل إعادة بناء من محض الخيال سماه م. أور «تطورا شبه دلالي»[2]، لأن المعنى الثاني لم يشتق من الأول، بل ببساطة إن دلالة (fruste) تأثرت ب (rustre) التي وجدت، من خلال شكلها، في حقله الترابطي. وبما أن (fruste) أثبتت في القرن الخامس عشر على هيأة (frustre) في المعجم التأثيلي للغة الفرنسية لبلوخ ووارتبورك Bloch & Wartburg، يظهر منذ البداية وجود علاقات ترابطية بين الكلمتين.

2. لقد قدم م. كيرو M. Guiraud مثالا واضحا للغز تأثيلي وفر فيه الحقل الترابطي حلا. إنها قصة كلمة maroufle. تسجل المعاجم كلمتين لهذه اللفظة، تعني الكلمة الأولى «قط كبير وسمين» وأيضا «نذل maraud»؛ في حين تدل الكلمة الثانية، التي أتت متأخرة، على «غراء قوي». يعتبر الانزياح التأثيلي كبيرا بين الكلمتين لدرجة يصعب معها التقريب بينهما. في حين أن التفسير سهل. إن التغيير نتج عن إدراج كلمة (chas) «غراء النشا» مشترك لفظي لقط «chat» التي سبق وأن رأينا أنها كانت مرادفة لكلمة (maroufle). ففي فترة معينة استمتعنا، عبر لعب بالكلمات، بإسناد معنى كلمة قط «chat» لكلمة غراء «chas».

3. يبرز مثال آخر لتاريخ كلمة «hanche» أن التأثيلي الذي لا يأخذ بعين الاعتبار الحقل الترابطي للكلمات يخاطر بالوصول إلى حقائق جزئية ويرتكب أخطاء في التقدير. تقر ببساطة أغلب معاجم التأثيل أن «hanche» ترجع إلى الأصل الجرماني «hanka». يحاول معجم بلوخ وورتبورك من خلال بعض الكلمات، ومستلهما مبادئ الدلالة الحديثة، تبيان سيرورة أكثر تعقيدا، أي نوعا من التفاعل المتسلسل الذي لا ينتهي عند مرحلة الاقتراض من الجرمانية. في الواقع، إنه يفسر أن الكلمة الجرمانية قد عوضت الكلمة اللاتينية فخذ «coxa»، التي عوضت بدورها الكلمة اللاتينية عظم الفخذ «femur» الذي أصبح مشتركا لفظيا مع لفظة (روث) «femus» (انظر أيضا لفظة fumier)، وتحيل على الكلمات المجاورة «cuisse» و«fumier»

---

1 Bally, Le Français Moderne, viii (1940), pp. 195 s. M.

يفضل ب. كيرو P. Guiraud مصطلح «الحقول الصرافية- الدلالية»، انظر مقاله:

externes et critères internes en étymologie », Bulletin de la sémantiques. Critères «Les champs morpho de Linguistique de Paris, lu, i (1956), pp. 265-88. Société

2 Words and Sounds in English and French, Oxford, 1953, ch. XV.

لتتمة التاريخ. نلاحظ التعارض بين ما يمكن أن نسميه التأثيل الإجمالي والتأثيل التجزيئي. لنستحضر صورة مشهورة لبروست، حول إعادة البناء الجزئية التي تشبه ذكريات دو كومبري قبل حلقة حلوة المادلين «شَكْلٌ من جزء مضيء مقتطع في وسط ظلمات دامسة، شبيه باحتراق نار بنغالية حيث تضيء بعض الشرارات الكهربائية وتجزأ بناية تظل بعض أجزاءها غارقة في الظلام»[1].

3

مجال آخر يمكن للتأثيل أن يستفيد فيه من تطورات الدلالة، نقصد به نظرية التحفيز. وهي إشكالية أرقت الفلاسفة اليونانيين وقسمتهم إلى فرقتين؛ مناصرو المذهب الطبيعي (الاعتباطية) الذين آمنوا بوجود علاقة طبيعية بين الشكل والمعنى، ومناصرو النظرية الاصطناعية (المواضعة). في أيامنا هذه تطرح هذه المسألة بصيغة مختلفة؛ فنحن نعلم أن أي لغة تشتمل على عناصر اعتباطية أو ثاخنة وعناصر محفِّزة أو شفافة، بحيث ينبغي أن نحدد لكل نظام العوامل المؤثرة فيه. سمحت دراسة معمقة لمختلف الأشكال التي يكتسيها التحفيز من عزل بعض المبادئ العامة وحصر إوالية هذه الظاهرة عن قرب[2]. لقد لوحظ مثلا، وجود ثلاثة أصناف من الكلمات المحفزة. يمكن للتحفيز أن يكمن في البنية الصوتية للكلمة مثل الأونوماطوبيا...كما يمكن أن تعتمد على البنية الصرفية للكلمة، بهذا المعنى، فمركبات من قبيل حاملة ريشة الكتابة (porte-plume)، أو كلمات بلواصق سابقة نحو ما دون الكاتبة (sous-secrétaire) أو كلمات بلواصق لاحقة مثل حارس (veilleur) تعتبر شفافة بمعنى مُحفزَة. في الأخير، يمكن للتحفيز أن يكون ذا طبيعة دلالية مؤسسة على علاقة ترابطية بين المدلولات؛ هكذا فكلمة دبوس (مسمار) («clou» punaise) تحفز بواسطة التشابه بين المسمار والحشرة[3]، وأيضا ما يجمع من تناظر بين كلمة النهر (rivière) والعِقد (collier).

لقد لاحظنا أيضا أن كمية العناصر الاعتباطية والمحفزة تكون جد متغيرة. لقد لخص سوسير نمطية أولية من خلال التمييز بين اللغات «المعجمية»، أين تصل اللاتحفيزية إلى أقصى مدى، وتنخفض في اللغات «النحوية» إلى أقل مدى (محاضرات سوسير، ص. 183). أبرزت الدراسات اللاحقة في الألمانية، أن كمية الكلمات محفزة أكثر مما هو عليه في الفرنسية، في حين تقف الإنجليزية في منتصف الطريق بين اللغتين. يمكن للمزج بين العنصرين أن يتغير أيضا خلال تطور تاريخ نفس اللغة؛ فمفردات الفرنسية القديمة كانت أكثر تحفيزا من نظيرتها الحديثة.

يمكن لمبدأين آخرين أن يستأثرا بانتباه التأثيليين لأنهما يتعلقان بالوعي الذي يمتلكه المستعملون عن أصل الكلمات، سواء أكانوا أشخاصا ناطقين أو كاتبين. هذان المبدآن هما تبدل التحفيز وموضوعيته، بحيث نجد في كثير من الأحيان أن التحولات الأصواتية والدلالية تطمس تحفيز الكلمة. فالكلمة (pipionem) في اللاتينية كانت أنوماطوبيا معبرة لا تقلد هذيل الحمام، ولكن الصوت الحاد لفرخ الحمام؛ وأصبحت تحيل على الحمام في الفرنسية

---

1 Proust. M. Du Côté de chez Swann, I, éd., 1954, p. 64.

2 لمزيد من التفصيل انظر:

Berne, 1952, ch. IV; cf. J. Engels, « Het Probleem der motivering », Précis de sémantique française, « Etymologie und Levende Talen, clxxxii (1955), pp. 521-39, et, tout dernièrement,M. Wandruszka, pp. 857-71. Philosophie », Etymologica,

3 تحيل هذه الكلمة أيضا على أنواع من الحشرات: البق، والقمل، والقراد.

وبذلك فقدت قوتها الأونوماطوبية... يعمل التعتيم الدلالي بطريقة متماثلة، من سيخطر بباله ربط لفظة تصدع (lézarde) بلفظة سحلية (lézard) أو علبة (boîte) بيَعْرج (boiter)؟. بيد أنه إذا كانت العديد من الكلمات تفقد تحفيزها، في المقابل، فإن كلمات أخرى يمكن أن تكتسب قوة تعبيرية لم تكن تمتلكها في الأصل. هكذا فإن الكلمة اليونانية (karèbaria)، التي تعني «ثقل في الرأس، أو صداع في الرأس»، أضحت لفظة أونوماطوبية في الفرنسية (charivari). يمكن للتأثيل الشعبي أن ينقل للكلمات تحفيزا مستقلا عن دلالتها الأصلية؛ فبفضل هذا الأمر أصبحت الصفة (ouvrable) غير محفزة ووجدت شفافيتها بكثرة تقريبها من الفعل «فتح» (ouvrir)، منذ أن طال النسيان فعل «عمل» (ouvrer) بمعنى (travailler).

يتمثل المبدأ الرابع والأخير في موضوعية التحفيز. بالنسبة لكاتب خيالي مشبع بالمعارف التأثيلية ومتأثر بالفوارق الدقيقة للغة، فإن كلمة ما يمكن أن تحتفظ بكل شفافيتها الأولية، أو أن تشحن بقوة تعبيرية غير مشكوك فيها لا يرى فيها الناس سوى مصطلح شفاف. نعثر على هذا الأمر في مجال التحفيز الصوتي الذي يطلق فيه الكتاب العنان لمخيالاتهم. كما قال بول فاليري Paul Valéry «تزاوج المتغير الصوتي والمتغير الدلالي يسبب مشاكل الإسهاب والتداخل التي يحلها الشعراء معصوبي الأعين»[1]. إننا نعرف الأوهام الأونوماطوبياتية لنوديي Nodier الذي كان يظن أنه يسمع في كلمة سرداب (catacombe) «صوت التابوت المتدحرج بدرجات على الزوايا الحادة للأحجار، ليقف فجأة في منتصف القبور» (عن معجم الأنوماطوبية). وكان بالزاك Balzak يتلذذ بالمصطلح العامي «ورقة بنكية» (fafiot) قائلا «ألا تسمعون همس ورق الحرير؟»[2]. ويتحمس في مكان آخر لـ «الاستقامة الرائعة» و«عفة العري» بالنسبة للصفة (حقيقي vrai)[3]. بالنسبة لجيل رومان Jules Romains فإن شارع ريامير Réaumur «يشبه غناء عجلات وجدران، وارتعاش المباني، واهتزاز الخرسانة تحت الإسفلت، ودوي القوافل تحت الأرض...»[4]. كما نتذكر أيضا مع بروست قطار الساعة واثنتين وعشرين دقيقة «المحمل بأسماء رائعة»[5]...

يستطيع الكُتّابُ تشبيب التحفيز الصرفي والدلالي للكلمات أيضا، من خلال جعل المعنى القديم يصطدم بالمعنى الجديد، بحيث نتحصل على أثَرٍ مضحك كما يفعل ذلك رابلي Rabelais عندما يرجع الفعل (بلع avaler) إلى دلالته التأثيلية: «إذا كنت أصعد كما أنزل[6]، لأصبحت فوق سطح القمر مبكرا»[7]. غير أن هذا الإجراء يمكن أن يتخذ وضعا مأساويا في مثل الجملة التي جعل أندري جيد A. Gide يقولها على لسان أوديب Œdipe «لقد فقأت عيناي لأعاقبهما على أنهما لم يستطيعا رؤية حقيقة، كما نقول، أنها تفقأ الأعين»[8]. وهكذا نجد أيضا

---

1 Cours de poétique, cité par F. Scarfe, The Art of Paul Valéry, Londres, 1954, p. 81.

2 عن رواية هنوري بلزاك (splendeurs et misères) طبعة م. ليفي M. Lévy ص. 401.

3 عن رواية بلزاك (louis lambert) ص. 4.

4 عن رواية جيل رومان (les Amours enfantines) ص. 302.

5 عن رواية مارسيل بروست (Du Côté de chez Swann, I) ص. 222.

6 استعمل الأصل التأثيلي للفعل avaler الذي يحيل على النزول (الشرح من عندنا).

7 ذكره وارتبورك Wartburg في:

Evolution et structure de la langue française, 5e éd., p. 161. -

8 عن Gide, A. Thésée.

في مسرحية ألبير كامي Albert Camus «حالة طوارئ Etat de siège» انحرافا تأثيليا للطاعون الذي يرمز للاستعمار العدو والنظام الشمولي: «الوجودي ليس أن يفهموا بل ينفذوا. انتبهوا! إنه تعبير يحمل معنى، ألا ترون ذلك؟...رائع! إننا نجد كل شيء! صورة الإعدام التي هي أولا صورة حنونة، ثم فكرة أن يتعاون المحكوم بالإعدام بنفسه في تنفيذ إعدامه، هذا الذي يشكل هدف وتقوية كل حكومة جيدة!...لقد ركزتها. إلى حدود الآن، كانوا يعيشون في تشتت وطيش، لنقل مائعين! الآن أصبحوا أكثر حزما وتركيزا!... ينفذون ويهتمون ويركزون. النحو شيء جيد ويمكن أن يصلح لكل شيء!» (ص. 117 و 121).

إن الفترة التي برزت فيها الدلالة، كان يأمل التأثيليون أنها ستكتشف قوانين دقيقة توفر لهم معايير سديدة لأعادة بناء مجالهم. خُيب هذا الرجاء، ومع ذلك تمكنت الدلالة من تقديم خدمات أخرى مفيدة للبحث التأثيلي. لقد وسعت حقل اشتغال التأثيل التقليدي بإضافة بعد جديد ألا وهو التأثيل الإحصائي، وكذا الإصرار على أنه من غير المقبول وضع تاريخ لكلمة دون الانتباه للمجموعات المعجمية التي تنتمي إليها. لقد عمقت بعض المشاكل الأساسية للتأثيل بتوضيح العوامل المعقدة التي تكمن وراء تحفيز الكلمات. لا تهم هذه النتائج، ونتائج أخرى، الفيلولوجيون وكل هاو للتأثيل أيضا، بما فيها الكتاب. إن لقضايا التأثيل سحرا خاصا على الكتاب الفرنسيين؛ ولعل الأطروحات التأثيلية التي دبج بها بروست روايته تعد مثالا صارخا لهذا الاهتمام العميق. إن تطورات الدلالة لا يمكن أن تظل غير مكثرة بها. عندما ظهر كتاب ميشيل بريال (Essai de sématique)، نشر فاليري Valéry تقريرا حماسيا عنه في مجلة (le Mercure de France). يمكن أن نتنبأ بأن الكتاب المتحمسين للتأثيل سيجدون في الدلالة أداة ثمينة للمساعدة في المهمة التي أسندها لهم مالارميه Mallarmé «إعطاء معنى أكثر شفافية لكلمات القبيلة».